الراء واللام بين التفخيم والترقيق في القراءات القرآنية العشر ((دراسة صوتية))

الدكتور /أحمد عجمي شعبان
مدرس أصول اللغة في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
ببني سويف – جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وبعد:

فإن من أجلّ النعم علينا أن أنزل الله إلينا هذا الكتاب المجيد، ، القرآن الكريم، الذي أُمرنا بقراءته قراءة نموذجية، كما نزل، ولن نستطيع ذلك إلا إذا درسنا الظواهر القرآنية الخاصة بالملامح الأدائية للقرآن الكريم.

ومما لا شك فيه أن القراءات القرآنية الصحيحة المتواترة، هي نفسها القرآن الكريم، كما قرر ذلك علماء القرآن والتفسير، وهي- أي القراءات – المرآة الصادقة لما كان عليه حال اللغة العربية قبل الإسلام، وهي الضمان الوحيد لبقاء هذه اللغة وعالميتها.

ومن الظواهر الأدائية في القراءات القرآنية ملمح التفخيم والترقيق، وقد اخترت منه تفخيم اللام والراء وترقيقهما، وذلك لأهمية هذا الموضوع من حيث إن اللام والراء لهما أحكام خاصة بهما في القراءت القرآنية، تعكس لنا ما كان عليه العرب قديمًا من أداء هذين الصوتين.

وإذا كان القراء وعلماء التجويد قد قدموا لنا أحكام الراء بهذه الصورة المفصلة الواضحة المنسقة، فإن عناية دارسي الأصوات العربية من المحدثين بأحكام الراء محدودة، ويكاد الدكتور إبراهيم أنيس أن يكون أكثرهم اهتماما بالموضوع، ولكن كلامه الموجز في ذلك جاء مملوءا بجوانب القصور، واتهام القراء بما ليس فيهم ؛ فنراه يقول : "ورغم اختلاف القراء في تفخيم الراء وترقيقها إلى حد يشبه الاضطراب، يمكن أن نستخلص من تلك الآراء المتشعبة ضوابط عامة يكاد يجمع عليها القراء [1]".

هذا، وقد سار هذا البحث على المنهج الوصفي، واقتضت طبيعته أن يكون في مقدمة ، وتمهيد، وعشرة مباحث، وخاتمة.

تمهيد : التصنيف المخرجي والوصفي

للراء واللام

أولاً: مخرج الراء واللام عند القراء:

ذكر ابن الجزري أن مخرج الراء من طرف اللسان، وجزء من ظهره فيما بينه وبين ما فويق الثنايا، وهذا الموضع قريب جدًا من مخرج النون، إلا أنه أدخل في ظهر اللسان منه.

أما مخرج اللام فقد ذكر أنه أدنى حافة اللسان (أي أقربها إلى الفم) من أدنى الحافة إلى منتهاها وما يقابل ذلك من اللثة (أي لحمة الأسنان العليا التي تشكل أسفل الحنك الأعلى) وتسمى اللام حرفًا جانبيًا؛ لخروجها من جانبي حافة اللسان، كما تعتبر الراء واللام من الحروف الذلقية نسبة إلى ذلق اللسان أي طرفه[1].

ثانيًا: مخرج الراء واللام عند المحدثين من علماء الأصوات:

يرى بعض علماء الأصوات أن الراء من الأصوات اللثوية وهي الأصوات التي يعاق الهواء في أثناء النطق بها؛ نتيجة لاتصال طرف اللسان باللثة العليا[2] أما عن مخرج اللام فيرى بعض علماء الأصوات المحدثين أن اللام من الأصوات الأسنانية اللثوية، وهي الأصوات التي يتكون عائق الهواء في أثناء النطق بها نتيجة لاتصال طرف اللسان بأصول الأسنان واللثة العليا(١).

ثالثًا: صفات الراء واللام:

تتميز الراء من بين الصوامت كلها بصفة التكرار Rolled وهي التي يحدث في أثناء النطق بها التصاق غير محكم لعضوي النطق لفترة قصيرة يعقبها فتح الممر لفترة قصيرة أخرى، ثم تعودان للالتصاق فالانفراج، وهكذا عدة مرات، ولا يوجد في العربية من هذا النوع من الصوامت سوى الراء(٢) وقد لاحظ القدماء في الراء هذا التكرار فوصفوه من أجل ذلك بالتوسط والتكرر(٣) وقد حذر المجودون وعلماء الأداء القرآني من إظهار صفة التكرار في الراء، ولاسيما إذا شددت، وكانوا يعدون ذلك عيبًا في القراءة؛ يقول ابن الجزوري في مقدمته لعلم التجويد:

والخلف في فرق لكسر يوجد وأخف تكريرًا إذا تشدد

وإلى جانب صفة التكرار التي في الراء فإن الراء توصف بالتوسط بين الرخاوة والشدة، كما أنها توصف بالجهر، أما عن استفالها واستعلائها فهذا ما سيفصح عنه هذا البحث ؛ لأن الاستعلاء هو مرادف التفخيم إذا ما علمنا أن التفخيم هو الأثر الفيزيائي الناتج عن الأثر الفسيولوجي الذي هو الاستعلاء .

أما عن صفات اللام فإن أهم ما يميز اللام صفة الجانبية Lateral وهي تلك التي يغلق معها جرى الهواء في وسط الفم ولكن يسمح له بالمرور من جانبي اللسان وينطبق هذا الوصف في اللغة العربية على اللام فقط(١) وقد سمى علماء التجويد اللام بالصوت المنحرف(٢).

وإلى جانب هذه الصفة في اللام فإن اللام توصف بالتوسط والجهر والانفتاح، أما عن استفالها واستعلائها فهذا ما سيفصح عنه ــ أيضا ــ هذا البحث ؛ لأن الاستعلاء هو مرادف التفخيم إذا ما علمنا أن التفخيم هو الأثر الفيزيائي الناتج عن الأثر الفسيولوجي الذي هو الاستعلاء، كما سبق .

المبحث الأول

التفخيم والترقيق عند القراء وعلماء التجويد

قبل الكلام عن أحكام التفخيم والترقيق عند القراء العشرة، والتفسير الصوتي لهاتين الظاهرتين، ومعرفة المقصود بهما عند القدماء والمحدثين ــ نحاول أن نلقي الضوء عليهما في اللغة:

١ــ التفخيم والترقيق في اللغة:

التفخيم فى اللغة: التعظيم؛ يقال: فخم الكلام: عظمه [١]، بينما الترقيق في اللغة: ضد التغليظ[٢] والغلظ ضد الرقة في الخلق والطبع والمنطق والعيش ونحو ذلك[٣].

٢ــ التفخيم والترقيق في اصطلاح القراء :

التفخيم في اصطلاح علماء التجويد والقراء : ربوُ الحرف وتسمينه [٤]، أو هو سمن يدخل على جسم الحرف ــ أي صوته ــ فيمتلئ الفم بصداه [٥]، فالتفخيم من الفخامة، وهي العظمة والكثرة، والتفخيم والتغليظ واحد ــ كما ذكر القراء ــ ولذا فهما مترادفان ــ إلا أن المستعمل في الراء في ضد الترقيق: التفخيم، وفي اللام: التغليظ، المرادف للتفخيم [٦].

أما الترقيق في اصطلاح القراء : فهو إنحاف صوت الحرف [٧] أو هو: نُحُول يدخل على جسم الحرف فلا يمتلئ الفم بصداه [٨].

التصور الصوتي للتفخيم والترقيق عند القراء من خلال تعريفاتهم لهما:

نستطيع أن ندرك من خلال تعريفات القراء للتفخيم والترقيق التصور الصوتي لهاتين الظاهرتين عندهم، وهو مقصور على الناحية السمعية فقط دون الإشارة إلى الناحية الفسيولوجية، أي ما يتم من تحركات أعضاء النطق في أثناء قيامها بعملية التفخيم، من ارتفاع مؤخر اللسان إلى أعلى قليلا في اتجاه الحنك اللين، وتحركه إلى الخلف قليلا في اتجاه الحائط الخلفي للحلق [١].

فالقراء حينما يعرّفون التفخيم بأنه: تسمين الحرف وتغليظه، يراعون الناحية السمعية الناتجة عن هذه الصفة، فهذا التسمين في صوت الحرف إنما هو نتيجة لكثرة الذبذبات الصوتية وتركزها في بؤرة واحدة هي مؤخر الفم[٢].

وعندما يعرف القراء الترقيق بأنه: إنحاف صوت الحرف ، فهم كذلك يراعون الناحية السمعية الناتجة عن هذه الصفة، فهذا النُحول في صوت الحرف ،إنما يكون نتيجة لقلة عدد الذبذبات وانتشارها في الفم [٣].

ولعل الذي دفع القراء إلى أن يركزوا على الناحية السمعية في تعريفهم التفخيم والترقيق، هو أنهم رتبوا صفة التفخيم على صفتي الإطباق والاستعلاء، حينما أدركوا العلاقة بين هذه الصفة (التفخيم) وصفتي الإطباق والاستعلاء ، ونرى ذلك في قول ابن الجزري :" والاستعلاء من صفات القوة، وهي سبعة يجمعها قولك: (قظ خص ضغط) وهي حروف التفخيم على الصواب ..." [٤].

وهذه الأحرف السبعة تشمل ــ أيضا ــ الحروف المطبقة ، كما سبق.

والقراء قد ذكروا التفسير الفسيولوجي لهاتين الصفتين (الإطباق والاستعلاء) فصفة الإطباق يعني بها القراء: ذلك الوضع الفسيولوجي المركب من عنصرين، وهما التقاء أمامي وآخر خلفي في زمن واحد، وذلك بأن يلتقي مقدم اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى: إما بالغلق المحكم كما في (الطاء) أو بالتضييق الذي يسمح معه للهواء بالمرور كما في (الصاد والظاء) أو بالغلق في مكان والتضييق في أخر كما في (الضاد

الفصيحة) .. وفي الوقت ذاته يتم التقاء خلفي وذلك بارتفاع مؤخر اللسان إلى الحنك الأعلى بحيث يتكون بينهما ممر ضيق.

وهكذا تكون صورة اللسان: ارتفاع من الخلف، وارتفاع من الأمام ويعقب ذلك انخفاض في وسطه أو تقعر، فيصبح مثل الطبق، ومن هنا سميت هذه الصفة (بالإطباق) وسميت الأصوات التي تنطق بهذه الكيفية بأصوات الإطباق[1].

وأصوات الإطباق عند القراء كما هي عند اللغويين وهي)الصاد ، الضاد، الطاء، الظاء)

وقد أدراك القراء هذا التفسير الفسيولوجي لصفة الإطباق وعللوا التسمية بالمطبقة قائلين:

" و إنما سميت بحروف الإطباق؛ لأن طائفة من اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بهذه الحروف، وينحصر الريح بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها في الفم ...." [2].

وكذلك نجد القراء قد فسروا صفة (الاستعلاء) تفسيرا فسيولوجيا ، وذكروا أن هذه الصفة أعم من الإطباق، فالاستعلاء عندهم يعني: ارتفاع مؤخر اللسان نحو أقصي الحنك دون أن يتخذ شكلا مقعرا[1] ونلمح ذلك في قول المرعشي: " استعلاء أقصي اللسان ، سواء استعلى معه بقية اللسان أم لا ....."[2].

فالإطباق ــ كما سبق ــ استعلاء أقصي اللسان مع ارتفاع مقدمه للغلق أو للتضييق أو لكليهما، وعلى ذلك فالإطباق جزء من الاستعلاء، فكل إطباق استعلاء وليس كل استعلاء إطباقا.

وحروف الاستعلاء عند القراء هي: حروف الإطباق الأربعة (ص ، ض ، ط ، ظ) و(الخاء والغين والقاف) وقد جمعت في قولهم (خص ضغط قظ) كما سبق.

وهذا التفسير الفسيولوجي لهاتين الصفتين: (الإطباق والاستعلاء) يكفي القراء مؤونة التفسير الفسيولوجي لصفتي (التفخيم والترقيق)؛ لأن التفخيم ما هو إلا أثر ناتج عن هاتين الصفتين (الإطباق والاستعلاء) كما أشار إلى ذلك القراء فيما سبق، والترقيق ما هو إلا أثر ناتج عن ضدي هاتين الصفتين وهما الانفتاح والاستفال.

وعلى هذا يمكن القول بأن القراء قد أدركوا التفسير الفسيولوجي والتفسير السمعي لكل من صفتي التفخيم والترقيق، فالإطباق والاستعلاء وأضدادهما يشيرون إلى العملية الفسيولوجية عند النطق، أما الترقيق والتفخيم فيشيران إلى الأثر السمعي الناتج عن هذا النطق[٣] .

المبحث الثاني
التفخيم والترقيق عند المحدثين من علماء الأصوات

عرف بعض المحدثين التفخيم بأنه: "ارتفاع مؤخر اللسان إلى أعلى قليلا في اتجاه الحنك اللين، وتحركه إلى الخلف قليلا في اتجاه الحائط الخلفي للحلق [٢].

وهذا التعريف يعتريه بعض الصور؛ لأنه يركز على الناحية الفسيولوجية فقط دون الإشارة إلى الناحية السمعية، ونلحظ هذا القصور ــ أيضا ــ عند أحد المحدثين الذي ركز على الجانب الفسيولوجي دون الجانب السمعي للتفخيم، وذلك عند ذكره الفرق بين كل من اللام المرققة واللام المغلظة، والراء المرققة والراء المفخمة، في أن الفرق بين كل من المفخمة والمرققة ينحصر في وضع اللسان مع كل منهما؛ لأن اللسان في حالة التفخيم يتخذ شكلا مقعرا كما هو الحال مع أصوات الإطباق [٣].

و يعرف أحد المحدثين التفخيم بقوله: " التفخيم velarisation أثر سمعي ينتج عن عوامل فسيولوجية متداخلة، ندرك منها عاملين مهمين :

أولهما: ارتفاع مؤخر اللسان تجاه أقصي الحنك the velum أو the soft palate (الحنك اللين) فيحدث تغير في التجويف الفموي، محدثا رنيناً مسموعاً Resonance

ثانيهما: (على ما يقال) رجوع اللسان إلى الخلف بصورة أسرع مما يحدث له في أثناء النطق بالأصوات المرققة فكأن للتفخيم جانبين: جانبا عضوياً (وهو موضع اللسان يتبعه في الفم) وجانباً سمعياً ذا خاصية مميزة ..... "[١].

وهذا التعريف يشتمل على التصور الصوتي للتفخيم بشقيه: الفسيولوجي والسمعي، فالأثر السمعي الذي هو تركز الذبذبات الصوتية في بؤرة واحدة، هي مؤخر الفم، ناتج عن الأثر الفسيولوجي الذي هو ارتفاع مؤخر اللسان تجاه أقصي الحنك .

وقد جعل بعض المحدثين التفخيم الذي يقابله المصطلح الأجنبي Emphasis مرادفاً للاستعلاء [٢]. والصحيح هو أن التفخيم هو الأثر السمعي الناتج عن الأثر الفسيولوجي الذي هو الاستعلاء كما سبق.

المبحث الثالث
تصنيف الأصوات الصامتة بحسب التفخيم والترقيق

تنقسم الأصوات الصامتة من حيث التفخيم والترقيق إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أصوات مفخمة بطبيعتها، وهي أصوات الاستعلاء (خص ضغط قظ) على تفاوت في درجات التفخيم ، فأصوات الإطباق (الطاء ، الظاء ، الصاد ، الضاد) أقوى تفخيما من (الغين والخاء والقاف)وأقوى هذه الأصوات تفخيما هو (الطاء)[٣].

وهذه الأصوات مفخمة تفخيما كليا في أي سياق تقع فيه، أي بقطع النظر عما يسبقها أو يلحقها من أصوات، والتفخيم بالنسبة لهذه الأصوات جزء لا يتجزأ من بنيتها، وبه تعرف حقيقتها ، وتنماز من سائر الأصوات الصامتة وتشكل لها كيانا خاصا بها [٤].

والقسم الثاني: أصوات لها حالات من التفخيم والترقيق، فتكتسب تفخيمها من السياق الذي تقع فيه ، وهذا الاكتساب مشروط في حدود خاصة ـــ كما سيأتي ـــ وهذه الأصوات هي (اللام ـــ والراء)[١].

القسم الثالث: ما يرقق في جميع الحالات، وهو بقية الأصوات الصامتة.

والقسمان الأول والثالث محل اتفاق بين القراء العشرة، فالحروف السبعة (خص ، ضغط ، قظ) مفخمة قولاً واحداً لدى جميع القراء؛ لأن تفخيمها ذاتي، وما عدا هذه الأحرف واللام والراء مرقق قولا واحدا عند جميع القراء؛ لأن الترقيق فيها- أيضاً- ذاتي.

أما القسم الثاني: المتمثل في صوتي (الراء و اللام) فهو محل اختلاف بين القراء العشرة تفخيما وترقيقا، وسيأتي ذكر مذاهب القراء في (الراء و اللام) من حيث التفخيم والترقيق.

المبحث الرابع
مذاهب القراء العشرة في(الراء) تفخيماً وترقيقاً [١] :

لخص بعض العلماء أحكام الراء بحسب اختلاف القراء واتفاقهم في تفخيمها وترقيقها **في ثلاثة أقسام وهي** :

القسم الأول: قسم لم يختلف القراء في تفخيمه.

القسم الثاني: قسم اختلفوا في تفخيمه وترقيقه، فرققه **ورش**، وفخمة الباقون.

القسم الثالث: قسم لم يختلفوا في ترقيقه؛ وذلك لموجب، هو إذا كانت الراء مكسورة كسرة لازمة أو عارضة تامة أو ناقصة، سواء أكانت أولا أم وسطا أم طرفا، منونة أم غير منونة، سكن ما قبلها أم تحرك، وقع بعدها حرف مستفل أم مستعل، في اسم أم فعل[٢].

وتفصيل هذه الأقسام على النحو التالي :

أولاً: الراء المتحركة

اـ المفتوحة والمضمومة :

اتفق القراء العشرة على تفخيم الراء إذا كانت مفتوحة أو مضمومة، مثل: " رَب العالمين " {الفاتحة ٢} و" رَؤياك " {يوسف آية ٥} إلا إذا كان قبلها ياء ساكنة نحو: " خيراً " {النحل آية ٣٠} و" خير " { البقرة آية ٦١ } أو كسر نحو: " الكافرون " { الكافرون آية ١} فإن **ورشاً عن نافع** يرقق الراء هنا بشرط أن تكون الياء الساكنة والكسر قبل الراء مع الراء في كلمة واحدة .

قال الإمام الشاطبي :

ورقق ورش كل راء وقبلها مسكنة ياء أو الكسر موصلا

فقوله: ورقق ورش كل راء يعني مفتوحة أو مضمومة؛ لأن الراء المكسورة سيأتي أنها مرققة لجميع القراء، وقوله : قبلها مسكنة ياء أو الكسر موصلا ، يعني: أن الياء أو الكسرة اللتين قبل الراء لابد أن يكونا مع الراء في كلمة واحدة ، فإن كانت الياء أو الكسرة في كلمة والراء في كلمة أخرى فلا ترقق لورش نحو: " على كل شيء رقيباً " { الأحزاب آية ٥٢}.

وإذا فصل بين الراء المفتوحة أو المضمومة والكسر حرف ساكن فلا يعتد بهذا الساكن وترقق الراء لورش ، مثل " لعبرة " {النازعات آية ٢٦}.

إلا إذا كان هذا الحرف الساكن من حروف الاستعلاء، نحو: " من مصر" {يوسف آية ٢١} فإن الراء تفخم لورش، إلا الخاء نحو: " إخراجا " {نوح آية ١٨}.

قال الإمام الشاطبي :

ولم ير فصلا ساكناً بعد كسرة سوى حرف الاستعلا سوى الخاء فكملا

واستثني لورش من هذا الباب الكلمات الآتية :

١) فخم ورش الراء التي في الأسماء الأعجمية، نحو: " إبراهيم وإسرائيل".

٢) فخم ورش الراء من كلمة (إرم) في قوله تعالى " إرم ذات العماد " {الفجر ٧}.

٣) فخم ورش الراء المتكررة، نحو:" إسرارا " {نوح آية ٩} و" مدرارا" {نوح ١١}.

قال الإمام الشاطبي :

وفخمها في الأعجمي وفي إرم وتكريرها حتى يري متعدلا

مذهب ورش في رائي: " شرر" من قوله تعالى :" إنها ترمي بشرر " {المرسلات آية ٣٢} و"حيران " من قوله تعالى: " حيران له أصحاب " {الأنعام آية ٧١} .

اتفق أهل الأداء عن ورش على ترقيق راء " شرر " مع وجود الشين المفتوحة والفاصلة بين الراء المكسورة ومع كون الياء من " ترمي " في كلمة والراء من "شرر " في كلمة أخرى ، ولكن وجه الترقيق لإتباعها ما بعدها وهي الراء المكسورة ؛حيث ترقق لجميع القراء .

وأما راء " حيران " فروي عنه ترقيقها وتفخيمها ولو أن الترقيق أقوي.

قال الإمام الشاطبي:

وفي شرر عنه يرقق كلهم وحيران بالتفخيم بعض تقبلا

وهناك مذاهب أخرى في الراء عن ورش، إلا أنها شاذة و لم يعتد بها.

قال الإمام الشاطبي :

وفي الراء عن ورش سوى ما ذكرته مذاهب شذت في الأداء توقُّلا

ب ــ الراء المكسورة :

أجمع القراء العشرة على ترقيق الراء المكسورة، نحو : " رجال " {الأحزاب ٢٣} و" فرهان " { البقرة ٢٨٣} .

فإذا سكنت هذه الراء المكسورة من أجل الوقف نحو: " والفجر " { الفجر ١} بالوقف على الراء ــ جاز ترقيقها أخذا بالأصل، وتفخيمها أخذا بالعارض، وهو السكون من أجل الوقف، والتفخيم أولى، إلا في راء: " يسر " { الفجر ٤ } و" فأسر " { الحجر ٦٥} و" لم أدر " { الحاقة ٢٦}؛ لأن الياء أصلية، وحذفت أما للجزم أو البناء ، فالترقيق فيها أولى.

قال الإمام الشاطبي:

وترقيقها مكسورة عند وصلهم وتفخيمها في الوقف أجمع أشملا

حكم الراء المتحركة بفتح أو ضم وبعدها كسر ، نحو: " ربحت " {البقرة ١٦} أو ياء ساكنة ، نحو: " لا ريب " {البقرة ٢ } .

لاشك أن هذه الراء تفخم؛ لأن الراء المرققة لورش هي التي تكون بعد كسر أو ياء ساكنة، وقد زعم جماعة بترقيق هذه الراء التي قبل كسر أو ياء ساكنة إلا أن هذا القول ليس له نص صريح .

قال الإمام الشاطبي:

وما بعده كسر أو الياء فما لهم بترقيقه نص وثيق فيمثلا

وقد رد الإمام الشاطبي هذا القول الضعيف والذي احتج أصحابه على ترقيق الراء المتحركة بالفتح التي قبل كسر أو ياء ساكنة قياسا على ما بعد كسر أو ياء بقوله:

وما لقياس في القراءة مدخل فدونك ما فيه الرضا متكفلا

ثانيا : الراء الساكنة :

١) الراء الساكنة وصلاً ووقفاً، وستأتي الساكنة للوقف :

اتفق القراء العشرة في الراء الساكنة من حيث ترقيقها **بشروط أربعة** :

١ــ أن يكون ما قبلها مكسوراً. ٢ــ أن تكون كسرة ما قبلها أصلية.

٣ــ أن يكون الكسر متصلا بالراء في كلمة واحدة.

٤ــ ألا يكون بعد الراء حرف استعلاء.

فما تحققت فيه هذه الشروط نحو: " فِرْعون " و مِرْية " و " شِرْعة " وجب ترقيقه لجميع القراء، فإن اختل شرط من هذه الشروط امتنع الترقيق، كأن كان قبل الراء فتحة، مثل: " العَرْش " { الأعراف ٥٤} أو ضمة، مثل: " كُرْه " { البقرة ٢١٦} . أو كان الكسر الذي قبل الراء عارضا، نحو: " أمِ ارْتابوا " {النور ٥٠} أو مفصولا، نحو: " الذي ارْتضي " {النور ٥٥ } أو كان ما بعد الراء حرف استعلاء في كلمة ، نحو :" بالمرصاد " {الفجر ١٤}. أما إذا كانت الراء في آخر كلمة والاستعلاء في أول التي بعدها، نحو: " ولا تصعر خدك "{لقمان ١٨} فيجب ترقيق الراء لجميع القراء.

قال الإمام الشاطبي:

ولابد من ترقيقها بعد كسرة	إذا سكنت يا صاح للسبعة الملا
وما حرف الاستعلا بعد فراؤه	لكلهم التفخيم فيه تذللا
ويجمعها قظ خص ضغط وخلفهم	بفرق جرى بين المشايخ سلسلا
وما بعد كسر عارض أو مفصل	فخم فهذا حكمه متبذلا

فعُلِم من قول الشاطبي تفخيمُ الراء الساكنة التي لم يتوافر فيها الشروط الأربعة، مثل :" مريم " {مريم ١٦} و " برها ن" {النساء ١٧٤ } و " لبالمرصاد" { الفجر ١٤} وأشار الإمام الشاطبي إلى الخلاف بين القراء في "فرق " من قوله تعالى: " فكان كل فرق كالطود العظيم" {الشعراء ٦٣} بين الترقيق والتفخيم ، فالتفخيم؛ لوجود القاف المستعلية بعد الراء، والترقيق؛ لكون القاف مكسورة، فمن نظر إلى ذات الحرف

فخم، ومن نظر إلى حركته التي هي الكسرة، والتي أضعفت التفخيم رقق؛ ولذلك فلا خلاف بين القراء العشرة في تفخيم راء " فرقة " (التوبة ١٢٢) لأن القاف مفتوحة .

الراء الساكنة للوقف:

هذه الراء إما أن تكون ساكنة قبل الوقف، نحو: " وانحر " {الكوثر٢} و"وثيابك فطهر والرجز فاهجر" {المدثر ٤، ٥} فهي كما في الوصل في جميع الأحوال، وقد سبق بيانه.

وإما أن تكون متحركة قبل الوقف، وسكنت من أجله، فإذا كان الوقف بالروم فهي كما في الوصل، إن كانت مفتوحة وصلا فهي مفخمة، وإن كانت مرققة وصلا فهي مرققة .

وإن وقف عليها بالسكون المحض فإن كان ما قبل الراء الساكنة مكسورا فالراء ترقق عند الجميع، مثل: " بالبر " {البقرة ٤٤ } وكذلك إذا كان قبلها ياء ساكنة مثل :" خير" و" قدير " وكذلك إن سبقت الراء الموقوف عليها بسكون قبله كسر، مثل :" السحر " {البقرة ١٠٢}.

كذلك إذا وقعت بعد ألف ممالة نحو: " لأولي الأبصار " {آل عمران ١٣}

فإن كان ما قبل الراء الموقوف عليها مفتوحا أو مضموما مثل: " استكبر " {المدثر ١٣} و" سعر " {القمر ٤٧} فإنها تفخم لجميع القراء، كذلك إذا كان قبلها سكون مسبوق بفتح أو ضم مثل: " والعصر " (العصر ١) و" خسر" (العصر ٢) فأنها كذلك تفخم .

قال الإمام الشاطبي:

ولكنها مع وقفهم مع غيرها ترقق بعد الكسر أو ما تميّلا
أو الياء تأتي بالسكون ورومهم كما وصلهم فابل الذكاء مصقلا
وفيما عدا هذا الذي قد وصفته على الأصل بالتفخيم كن متعملا

ويمكن أن نستخلص من هذا الحصر لمذاهب القراء العشرة في الراء ما يلي:

١) ترقق الراء إذا كانت مكسورة أو جاءت ساكنة بعد كسر لجميع القراء العشرة.
٢) تفخم الراء إذا كانت مضمومة أو مفتوحة أو جاءت ساكنة بعد فتح أو ضم لجميع القراء عدا ورش عن نافع.
٣) ترقق الراء إذا كانت مفتوحة أو مضمومة بعد كسر أو ياء ساكنة لورش عن نافع بشروط قد سبقت.

وإذا كان القراء وعلماء التجويد قد قدموا لنا أحكام الراء بهذه الصورة المفصلة الواضحة المنسقة، فإن عناية دارسي الأصوات العربية من المحدثين بأحكام الراء محدودة، ويكاد الدكتور إبراهيم أنيس أن يكون أكثرهم اهتماما بالموضوع، ولكن كلامه الموجز في ذلك جاء مملوءا بجوانب القصور، واتهام القراء بما ليس فيهم ؛ فنراه يقول : "ورغم اختلاف القراء في تفخيم الراء وترقيقها إلى حد يشبه الاضطراب، يمكن أن نستخلص من تلك الآراء المتشعبة ضوابط عامة يكاد يجمع عليها القراء [١]".

ويظهر القصور في كلامه أكثر حينما يضع ضوابط أحكام الراء والتي يخلط فيما بين مذاهب القراء خلطا واضحا مما يجعلنا نحكم على تفصيله أحكام الراء بالاضطراب[٢].

المبحث الخامس
هل الأصل في الراء التفخيم أو الترقيق ؟

من مهمات الدراسة الصوتية الحديثة أن تحدد الصفات التي يتصف بها الصوت اللغوي حال إفراده وحال تركيبه، وإن كان التفخيم أو الترقيق ليسا من الصفات الفارقة التي تحدد الصوت اللغوي وتميزه من غيره من الأصوات الأخرى، ولكنها ملمح أدائي من ملامح الأداء القرآني الذي ظل الخلف والسلف يتناقلونه من بعد سماعهم القرآن من في رسول الله ــ صلي الله عليه وسلم ــ إلى يومنا هذا، وقد أجمعت الأمة على تواتر هذه الملامح الأدائية القرآنية، وقد ذهب بعض المحدثين من علماء الأصوات إلى أن البحث عن أصل (الراء) هل هو التفخيم أو الترقيق لن يغني عنا شيئا [١].

لكن هذا الكلام إن كان له موقع من القبول فيكون على مستوى أصوات اللغة العربية عامة، أما على مستوى أصوات القرآن الكريم فإن الأمر يختلف؛ لأن ذلك

متعلق بالنص الأدائي للقرآن الكريم الذي نتعبد به ولا تصح عبادتنا من دون أن نؤديه على الوجه الذي نزل به إن استطعنا إلى ذلك سبيلا.

وهذه القضية : (هل الأصل في الراء التفخيم أو الترقيق ؟)

قد بحثها علماؤنا القدامى من القراء وعلماء التجويد، مما يدل على أهمية هذه القضية فيما يتعلق بقراءة كتاب الله تعالى، واختلفوا في ذلك اختلافا كثيرا؛ فمن قائل: إن أصل الراء هو التفخيم [٢]، ومن قائل : إنه ليس للراء أصل في التفخيم ولا وفي الترقيق، وإنما يعرض لها ذلك بحسب حركتها فترقق مع الكسرة لتسفلها و تفخم مع الفتحة والضمة لتصعدهما، فإذا سكنت جرت على حكم المجاور لها [١].

وهذا الرأي هو الأحرى بالقبول؛ لاتفاقه مع ما قررته الدراسة الصوتية الحديثة من أن الراء لا توصف بتفخيم ولا بترقيق، وإنما يعرض لها ذلك من خلال السياق الذي تقع فيه، وإن كانت مواقع تفخيم الراء كثيرة يصعب حصرها، ومن هنا لجأ رجال الاختصاص إلى حصر مواقع الترقيق؛ لأنها أسهل منالاً واقرب إلى الدقة [٢].

لكن هذه الكثرة في مواقع التفخيم لا تجعلنا نحكم على الراء بأن أصلها التفخيم كما ذهب إليه بعض المحدثين [٣] ؛لأن كثرة مجئ الراء المفخمة راجع إلى أن نسبة شيوع الفتحة في اللغة العربية حوالي ٤٦٠ في كل ألف من الحركات قصيرها وطويلها في حين أن الكسرة حوالي ١٨٤ والضمة ١٤٦ [٤].

وهذا الرأي القائل بأن الراء لا توصف بترقيق ولا تفخيم يؤيده ـــ أيضا ـــ رواية ورش عن نافع الذي يرقق الراء المفتوحة والمضمومة في سياقات محدودة ومشروطة؛ و ذلك إذا سبقت بكسر أو ياء ساكنة، كما نبه عليه ابن الجزري وغيره [٥].

هذا، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الدراستين التجويدية والصوتية الحديثة قد اتفقتا على أن الترقيق هو الأصل، ولذا فقد خصتا التفخيم فقط بالحديث [١].

وهذا القول غير صحيح لما قدمناه من اختلاف القدماء والمحدثين في أصل الراء.

وقد وصف المحدثون صوت الراء العربية بأنه صوت لثوى، مجهور، مكرر، متوسط بين الشدة والرخاوة [٢].

بين الترقيق والإمالة:

ذكر ابن الجزري أن قوما من العلماء قد عبروا عن الترقيق في الراء بالإمالة بين اللفظين، وذكر من هؤلاء الداني وبعض المغاربة [٣].

ولكن الداني لم يفعل ذلك، فقد ذكر في كتاب التحديد في الإتقان والتجويد: أن الترقيق يكون في الحرف دون الحركة، والإمالة في الحركة دون الحرف [١]، ومعلوم أن الراء حرف لا حركة.

و قد ذكر ابن الجزري أن إطلاق الإمالة على الترقيق من باب التجوز؛ إذ الإمالة أن تنحو بالفتحة إلى الكسرة وبالألف إلى الياء ؛ بينما الترقيق: إنحاف صوت الحرف، فيمكن اللفظ بالراء مرققة غير ممالة ومفخمة ممالة، وقال : إن ذلك واضح في الحس والعيان، وإن كان لا يجوز رواية مع الإمالة إلا الترقيق[٢]

وقد دفع قول هؤلاء بردود منها :

١ــ لو كان الترقيق إمالة لم يدخل على المضموم والساكن، ولكانت الراء المكسورة إمالة وذلك خلاف إجماعهم .

٢ــ إذا قلت (ذكرى) التي هي فعلى بين بين ، كان لفظك بها غير لفظك بذكرًا (المذكر) وقفا إذا وقفت، ولو كانت الراء في المذكر بين اللفظين لكان اللفظ بهما سواء وليس كذلك .

ولا يقال: إنما كان اللفظ في المؤنث غير اللفظ في المذكر؛ لأن اللفظ بالمؤنث ممال الألف والراء، واللفظ في المذكر ممال الراء فقط؛ فإن الألف حرف هوائي لا يوصف بإمالة ولا تفخيم، بل هو تابع لما قبله، فلو ثبت إمالة ما قبله بين اللفظين، لكان ممالاً بالتبعية، كما أملنا الراء قبله في المؤنث بالتبعية، واختلف اللفظ بهما والحالة ما ذكر[٣].

المبحث السادس
وقوع التفخيم والترقيق في (الراء) في إطار ظاهرة المماثلة

إذا كان المحدثون قد تناولوا ظاهرة المماثلة Assimlation بالبحث والتحليل، ورأوا أن الصوت يؤثر في مجاوره سواء من ناحية المخرج أم من ناحية الصفة [١]، فقد التفت القراء وعلماء التجويد إلى المماثلة حين رأوا أن الأصوات المفخمة تؤثر فيما جاورها وتتأثر ــ أيضا ــ ويمكن أن نستخلص من بحث المحدثين لهذه الظاهرة أن الأصوات الصامتة من حيث التفخيم صنفان: **أولهما:** صنف يكون عنصر التفخيم فيه لازماً وليس عارضا وهو (الصاد، الضاد ، الطاء ، الظاء ، القاف ، الخاء ، الغين) أي حروف الإطباق والاستعلاء

أما الصنف الثاني: فهو صنف يكون تفخيمه صفة عارضة، وهو (الراء، اللام) وهذا الصنف يكتسب عنصر التفخيم بالسياق، فالفتحة والضمة الطويلة والقصيرة يؤثر كل منها في (لام) لفظ الجلالة ــ كما سيأتي ــ و يؤثرن في الراء ويكسبنها صفة التفخيم، والكسرة بنوعيها الطويلة والقصيرة يؤثران في "لام " لفظ الجلالة ــ كما سيأتي ــ وفي الراء ويكسبانهما الترقيق.

وقد ذكر المحدثون من علماء الأصوات أن **للمماثلة جانبين** :

الجانب الأول: ما يعرف بالتأثر الرجعي الذي يتأثر فيه الصوت الأول بالثاني[١]، ويتحقق هذا الجانب في الراء إذا كانت مكسورة لجميع القراء، فالراء المكسورة متأثرة بالكسرة المجاورة لها بعدها في نحو :"رِقاب " و "رِجال " فالكسرة هنا لاحقة بصوت الراء وبها تأثرت الراء السابقة عليها في تسفلها فرققت لذلك.

كما يتحقق هذا الجانب (التأثر الرجعي) في حالة ما إذا كانت الراء مضمومة أو مفتوحة في نحو :" رُؤياك " و" رَب " لجميع القراء العشرة فالضمة والفتحة هنا لاحقتان بصوت الراء وبهما تأثرت الراء السابقة عليهما ففخمت لتصعدهما.

والجانب الثاني من جانبي المماثلة: ما يعرف (بالتأثر التقدمي) وفيه يتأثر الصوت الثاني بالأول[٢] ، ويتحقق في ما إذا كانت الراء ساكنة بعد كسر لجميع القراء، مثل: "

فِرعْون " و مِرْية " فهنا تأثر الصوت الثاني وهو الراء بالكسرة التي في الصوت الأول السابقة عليها، وكذلك يتحقق هذا الجانب إذا كانت الراء ساكنة بعد فتح أو ضم لجميع القراء نحو: " العرْش " و "غُرْفة " فهنا تأثر الصوت الثاني وهو الراء بالفتحة والضمة قبله، والأثر الناتج عن هذا التأثر هنا هو التفخيم.

ويتحقق هذا الجانب ـــ أيضا ـــ في ما إذا كانت الراء مفتوحة أو مضمومة بعد كسر أو ياء ساكنة في رواية ورش عن نافع نحو :" الكافرون " و "خيراً " و "خيرُ " وهنا تتأثر الراء وهي الصوت الثاني بالكسرة أوالياء قبلها في تسفلها، فينتج عن ذلك ترقيق الراء.

كما يتحقق في ما إذا كانت الراء مفتوحة بعد ساكن قبله مسكور في رواية ورش عن نافع نحو " لعِبْرة " فالراء هنا وهي هي الصوت الثاني تأثرت بالكسر الذي في العين، وإن فصل بينهما فاصل، وهو الباء الساكنة إلا أنه لا يعتد بهذا الفاصل؛ لإنه حرف ساكن، والسكون لايؤثر فيما قبله ولا بعده، وإذا كان هذا الفاصل حرف استعلاء نحو: " مِصْر " فيفصل حرف الاستعلاء بين الراء والكسرة التي في الحرف الأول فينتج عن ذلك تفخيم الراء، ويمكن أن يعد هذا الموضع من الجانب الذي يتأثر فيه الصوت الثاني بالأول؛ حيث تأثرت الراء بصوت الصاد قبلها وهو صوت مستعل فاكتسبت منه التفخيم .

إلا إذا كان صوت الاستعلاء هو صوت (الخاء) فلا يعتبر فاصلا، نحو : " إخراجاً " فلا تفصل (الخاء) وإن كانت من حروف الاستعلاء بين الراء والكسرة التي في الهمزة من كلمة "إخراجاً " وذلك لأن الاستعلاء في الخاء ضعيف؛ لأن الخاء مخرجها من أقصي الحنك قرب الكاف؛ ولذا عدها بعض المحدثين من الأصوات التي لا توصف بتفخيم ولا ترقيق [1].

أما ما استثني لورش من هذه القاعدة وليس له فيه إلا التفخيم فهو :

١) الأسماء الأعجمية نحو: " إبراهيم، وإسرائيل " فإن هذه الأسماء منقولة من لغاتها الأصلية هكذا، فلا يمكن إخضاعها لمذهب العرب في ترقيق الراء إذا وقعت في مثل هذا السياق.

٢) كلمة (إرم) للاختلاف في عجمتها فتأخذ ـــ أيضا ـــ حكم الأسماء الأعجمية.

٣) إذا ما تكررت الراء في كلمة واحدة مثل: " مدرارا " و "إسرارا " وهذا النوع يمكن عده من الجانب الذي يتأثر فيه الصوت الأول، وهو الراء الأولى، بالصوت الثاني، وهو الراء الثانية (تأثر رجعي) فالراء الثانية مفخمة؛ لانفتاحها، وعدم وجود كسرة أو ياء ساكنة قبلها، فتأثرت بها الراء الأولى، والتي وجد موجب الترقيق فيها، وهو وقوعها بعد كسر، إلا أن هذا الموجب ضعف بوجود الساكن بين الراء والكسر منها فأصبح التأثير للأقوى وهو الراء الثانية فجذبتها إليها واكتسبت منها تفخيمها.

كذلك يمكن أن يعد من النوع الأول (التأثر الرجعي) الوجه الثاني في كلمة (حيران) وهو تفخيم الراء حيث تأثرت بالألف بعدها، وهو فتحة طويلة.

وعلي الوجه الأول في كلمة (حيران) ، وهو ترقيق الراء يمكن عده من النوع الثاني (التأثر التقدمي)؛ حيث تأثرت الراء بالياء الساكنة قبلها .

كما يمكن أن يعد من النوع الأول (التأثر الرجعي) تفخيم الراء في نحو: "قِرْطاس " و "بالمِرْصاد " و "فِرْقة "؛ حيث تأثرت الراء بصوت الاستعلاء في هذه الكلمات فاكتسبت منها التفخيم؛ لوجود الراء معها في كلمة واحدة، مع أن قبل الراء الساكنة كسرا وهو يوجب الترقيق، ولكن الاستعلاء أقوى فجذب الراء إليه .

كما يمكن أن يعد من النوع الثاني (التأثر الرجعي) الذي يتأثر فيه الصوت الأول بالثاني ــ مذهب ورش في ترقيق الراء في كلمة (بشرٍ) حيث تأثرت الراء الأولى بالراء الثانية التي هي مرققة لجميع القراء؛ لأنها مكسورة، فاكتسبت منها الترقيق .

المبحث السابع

مذاهب القراء العشرة في تفخيم اللام وترقيقها [1]

تفخم اللام في حالتين: الأولي: متفق عليها بين القراء العشرة، والثانية: انفرد بها ورش عن نافع، وترقق فيما عدا ذلك.

الحالة الأولي:

هي أن اللام من اسم الله المعظم تفخم إذا وقعت بعد ضمة أو فتحة، نحو: " الحمد لله " {الفاتحة ٢ } و" قال الله " {المائدة ١١٠} وترقق إذا سبقت بكسرة، نحو: " بسم الله " {الفاتحة ١}.

قال الشاطبي :

وكل لدى اسم الله من بعد كسرة يرققها حتى يروق مرتلا

كما فخموه بعد فـــتح وضمـــة فتم نظام الشمل وصلا وفيصلا

الحالة الثانية:

غلظ ورش عن نافع اللام بشرطين:

أولهما: أن تكون اللام مفتوحة، **وثانيهما:** أن تقع بعد صاد أو طاء أوظاء ســـاكنة أو مفتوحة، نحو: " الصلاة " {البقرة ٣} و" فيصلب " {يوســـف ٤١} و"الطـــلاق " {البقرة٢٢٧ } و" معطلة " {الحج ٤٥} و " من أظلم " {البقرة ١١٤ } و "ظلموا " {البقرة ٥٩} .

قال الشاطبي :

وغلظ ورش فتح لام لصادها أو الطاء أو للظاء قبل تزلا

إذا فتحت أو سكنت كصلاتهم ومطلع أيضا ثم ظل ويوصلا

واختلف عن ورش في اللام التي فصل بينها وبين الطاء أو الصـــاد ألـــف، نحـــو: "فطال" {الحديد ١٦} و "فصالاً" {البقرة ٢٣٣ } فروي عنه الترقيق؛ لوجود الألف الفاصل بين الطاء والصاد وبين اللام، كما روي عنه التفخيم على اعتبار أن الحـــرف الساكن لا يعتبر فاصلا، وكذلك اختلف عنه في لام "يوصل "{الرعـــد ٢١} عنـــد الوقف عليها بالسكون؛ فالترقيق أخذا بالعارض، وهو السكون؛ حيـــث الشـــرط أن تكون مفتوحة، والتفخيم أخذا بالأصل، وهو الفتح، والتفخيم أولى في كل ما ذُكر.

قال الشاطبي :

وفي طال خلف مع فصالاً وعندما يسكن وقفا والمفخم فضلا

وإذا كانت اللام المفخمة بعدها ألف ذات ياء مختلف في تقليلها، نحـــو "مصـــلى " {البقرة ١٢٥} فإنها ترقق حال التقليل وتفخم حال الفتح، أمـــا عنـــد رؤوس الآي، حيث في ألفها التقليل لورش قولاً واحداً فيجب ترقيق اللام، ويمتنع التفخيم في نحـــو قوله تعالى: " وذكر اسم ربه فصلى " { الأعلى ١٥}.

قال الشاطبي :

وحكم ذوات الياء منها كهذه وعند رؤوس الآي ترقيقها اعتلا

فقوله: كهذه إشارة إلى الخلاف في الترقيق والتفخيم في "طال " و" فصالاً " وقوله: وعند رؤوس الآي ترقيقها اعتلا، يعني: أن الترقيق هو المقروء به؛ حيث لا فتح لورش في ألفات رؤوس الآي في السور الإحدى عشر [1].

ويمكن أن نستخلص من هذا الحصر لمذاهب القراء العشر ة في اللام أن لها حكمين أدائيين يمثلان حالتيها السابقتين:

الحكم الأول: تفخم من لفظ الجلالة إذا وقعت بعد ضم أو فتح لجميع القراء .

والحكم الثاني: تفخم إذا كانت مفتوحة بعد صاد أو طاء أو ظاء، لورش عن نافع وقد سبقت الأمثلة والتفاصيل .

المبحث الثامن
هل الأصل في(اللام) التفخيم أو الترقيق؟

اتفق القراء وعلماء الأصوات من المحدثين على أن الأصل في (اللام) الترقيق؛ يقول ابن الجزري: "وقولهم: الأصل في اللام الترقيق أبين من قولهم في الراء: إن أصلها التفخيم؛ وذلك أن اللام لا تغلظ إلا لسبب، وهو مجاورتها حرف الاستعلاء، وليس تغليظها إذ ذالك بلازم، بل ترقيقها إذا لم تجاور حرف الاستعلاء اللازم "[2].

ويقول المحدثون: إن اللام نوعان: مرققة، ومغلظة، على أن الأصل في اللام العربية الترقيق [3].

إلا أن القراء قد بنوا هذا الأصل على كثرة ورود اللام مرققة، وعلى قلة ورودها مفخمة أو مغلظة، مع الاشتراط لذلك، كما بنوا ذلك ـــ أيضا ـــ على إجماع القراء على ترقيق اللام، وانفراد ورش فقط بالتفخيم؛ يقول مكي بن أبي طالب القيسي: "... وأيضا فإن الترقيق هو الأصل، ألا تري أنه لا يجوز تفخيم كل لام، ولا يجوز ترقيق كل لام، فالأعم هو الأصل، والتفخيم داخل فيها لما ذكرت لك من مقاربتها للراء والنون في المخرج، وأيضا فإن الترقيق عليه كل القراء فإجماعهم حجة" [1].

ويقول عبد الوهاب القرطبي:" ترقيق اللام هو الأصل فيها؛ لكثرته ..... "[2].

لكن هاتين العلتين لا يقومان دليلاً على أن الترقيق هو الأصل؛ لأن كثرة ورود اللام مرققة في اللغة العربية عموما هو لغة من لغات العرب، ووردها مفخمة ـــ وإن كان بصورة أقل من الترقيق ـــ هو أيضا لغة من لغات العرب؛ وفي هذا يقول مكي

عند تعليله مذهب ورش: "وعلة من فخم هذا النوع أنه لما تقدم اللام حرف مفخم مطبق مستعل، أراد أن يقرب اللام نحو لفظه، فيعمل اللسان في التفخيم عملاً واحدا، وهذا هو معظم مذاهب العرب في مثل هذا، يقربون الحرف من الحرف؛ ليعمل اللسان عملاً واحدا، ويقرّبون الحركة من الحركة ليعمل اللسان عملا واحدا....."[٣].

ومكي بن أبي طالب في هذا النص يلفت الأنظار إلى ظاهرة المماثلة التي استخدم لها مصطلح التقريب، ويجعل تفخيم الراء في مذهب ورش نوعا من هذا التقريب الذي هو مذهب من مذاهب العرب كما قال.

كما أن إجماع القراء على ترقيق اللام لا يقوم دليلاً على اعتبار أن الأصل في اللام الترقيق؛ وذلك لسببين:

الأول: أن هذا الإجماع اخترق بمذهب ورش عن نافع؛ حيث صحت به الرواية عن رسول الله صلي الله عليه وسلم.

والثاني : أن هذا الإجماع ــ أيضا ــ انتقض بإجماع القراء على تفخيم اللام من لفظ الجلالة في حالات مخصوصة ــ كما سبق ــ وإن كان بعض القراء قد علل لذلك بتعليل معنوي ــ كما سيأتي ــ وهو التعظيم للفظ الجلالة.

والذي تطمئن إليه النفس أن اللام مثلها مثل الراء، لا توصف بتفخيم ولا ترقيق، بل يعرضان لها حسب السياق الذي تقع فيه.

المبحث التاسع
تعليل القراء لتغليظ اللام

قدم بعض علماء التجويد والقراء لتغليظ اللام في اسم الله ــ تعالى ــ تعليلاً غير صوتي؛ فقد قال عبد الوهاب القرطبي: " والوجه في تفخيم اللام ــ تعالى ذكره ــ ما يحاول من التنبيه على فخامة المسمى به وجلاله، وذلك أصل فيه، إلا أن يمنع منه مانع"[١].

وقدم بعضهم تعليلاً صوتيا لترقيق اللام في اسم الله ــ تعالى ــ بعد الكسرة، وهو إنما كرهوا التفخيم بعد الكسر؛ لأن الكسرة حرف مستفل، والتفخيم فيما تصاعد، فصعب عليهم أن ينتقلوا من التسفل إلى التفخيم، فيكون في ذلك كلفة على اللسان" [٢].

و تعليل القراء الأول للتغليظ في اللام، ليس له علاقة بالدرس الصوتي، على أنه يمكن القول بأن التفخيم في لام لفظ الجلالة سببه وقوع الفتحة والضمة قبلها، فيندرج تحت النوع الثاني من نوعي المماثلة (التأثر التقدمي) أي ما يتأثر فيه الصوت الثاني وهو (اللام) بالصوت الأول وهو (الفتحة أو الضمة).

وقد يعترض هذا بأنه يلزم تفخيم كل لام وقعت بعد الفتحة والضمة مثل: اللبن، و الليل، اللباب، وهذا ليس بحاصل، ويردّ هذا الاعتراض بأن هذا التفخيم في (اللام) مطلقا بعد الفتحة والضمة ــ لغة من لغات العرب؛ يقول السعيدي:" ورأيت العرب في البادية والحجاز واليمن يفخمون سائر اللامات، فيقولون: ثلاثة، فيفخمونها وهي لغة أهل الشام والمغرب " [٣].

ثم نزل القرآن بتفخيم لام لفظ الجلالة فقط، وعلى هذا يكون التفخيم في اللام هو الصورة الصوتيةPhone المقابلة للترقيق، وليست الوحدة الصوتية phoneme المقابلة للترقيق، كما ذهب إليه بعض الباحثين؛ حيث قال: " والذي يدلنا على أن اللام المرققة تقابل اللام المفخمة فونيميا (أي أن إحداهما نظير الأخرى) هذه الثنائية: ــ والله wallaah ــ ولاه wallaah " [١].

فوجود اللام المفخمة بعد الضمة والفتحة في كل كلام بعض القبائل العربية دليل على أن اللام المفخمة تقابل اللام المرققة فونيا وليس فونيميا.

أما عن تعليل مذهب ورش السابق في تفخميه اللام؛ فقد قال القراء:" وأما مذهب ورش فوجهه طلب المناسبة بين الحروف، كما في إمالة الألف، وترقيق الراء، والقلب والتشديد" [٢].

وهذا الكلام يلفت النظر إلى ظاهرة المماثلة؛ فهو تفسير صوتي صحيح لظاهرة التفخيم في اللام الناشئة عن التركيب والسياق؛ وذلك لأن فتحة اللام تناسب التفخيم، كما أن حروف الإطباق قبلها تقتضي ارتفاع ظهر اللسان وانطباقه على الحنك الأعلى، وهو يشبه ما يحدث عند تفخيم اللام إلى حد كبير[٣].

وقد قال مكي بن أبي طالب: " وعلة من فخم هذا النوع أنه لما تقدم اللام حرف مفخم مطبق مستعل أراد أن يقرّب اللام نحو لفظه، فيعمل اللسان في التفخيم عملاً واحدا" [١].

وهذه التعليلات لقدامى القراء تنطبق على ما يعرف عند المحدثين بالمماثلة، فالإطباق الذي في الصاد والطاء والظاء قد أثّر على الصوت الثاني، وهو اللام وهو تأثر تقدمي .

والسؤال الآن هو: لماذا لم تفخم اللام بعد الضاد في نحو: " ضل " في رواية ورش عن نافع، والضاد ــ كما هو معلوم ــ من أصوات الإطباق ؟

ولعل السبب في ذلك أن الضاد ــ وإن كانت من حروف الإطباق ــ إلا أن الاستطالة التي فيها جعلت مخرجها يمتد إلى مخرج اللام، فامتنع لذلك التفخيم في اللام؛ لشبه التقارب في المخرج بين الضاد واللام .

المبحث التاسع
التفسير الصوتي الحديث للتفخيم

أولا: التفخيم فسيولوجيا

من جوانب الدراسة الصوتية الجانب الفسيولوجي، وهو منهج من مناهج الدرس الصوتي الحديث، فالأصوات في أولى مراحلها إنما هي اهتزازات يصدرها جهاز النطق في الإنسان، وعلى عالم الصوتيات أن يدرس الأصوات في هذه المرحلة، كما أنه قد يختار المنهج الفسيولوجي في دراسة الظواهر الصوتية، فما نسمعه وندركه قد قامت أعضاء النطق بإنتاجه، وعلى ذلك فإن التعرف على الكلام في مرحلة النطق أمر ضروري، على الدراسة أن تبتدئ به.

كما أن علم الأصوات الفسيولوجي يكشف عن طبيعة العملية النطقية، وطبيعة كل عضو في جهاز النطق، والتحركات التي يقوم بها مع كل صوت من أصوات اللغة، وأيضًا عن المكان الذي يخرج منه الصوت العضوي، والكيفية التي ينطق بها، وما يترتب على ذلك من تصنيف الأصوات وتقسيمها، كما يُكشف في هذا الجانب أيضًا عن الواقع الفسيولوجي لكل ظاهرة من الظواهر الصوتية.

ومن هنا نقول: إن التفخيم يرتبط فسيولوجياً بشكل ووضع اللسان؛ إذ هما العاملان الرئيسان في التفريق بين الأصوات المفخمة وغير المفخمة، فعند النطق بالأصوات المفخمة يلاحظ الآتي :

١ــ ارتفاع مؤخر اللسان إلى أعلى في اتجاه الحنك الطري (الطبق).

٢ــ ثم تحركه قليلاً إلى الخلف في اتجاه الحائط الخلفي للبلعوم؛ ليصنع احتكاكا مع اللهاة.

٣ــ يكون التيار النفَسي معها قويا بدرجة كبيرة.

يلاحظ أن هذه الأمور الثلاثة متزامنة؛ حيث تحدث معا في وقت واحد، وهذه الأمور الثلاثة، وإن كانت تحدث مع جميع الأصوات المفخمة سواء أكانت مطبقة أم غير مطبقة، فإن الأصوات المطبقة منها تتميز من غيرها من الأصوات المفخمة بالجهد العضلي القوي الناتج من احتكاك جميع السطح العلوي للسان مع سقف الفم، ومن هنا فإن منطقة إخراجها تعد منطقة أوسع بصفة عامة[١].

ثانيا: التفسير الفيزيائي للتفخيم:

من جوانب الدراسة الصوتية الجانب الفيزيائي، وهو الذي يهتم بمرحلة انتقال الأصوات من فم المتكلم إلى أذن السامع، فيتعرف على الواقع الفيزيائي للأصوات من حيث الطبيعة والخصائص، وعلى الظواهر الصوتية كذلك.

وتعتمد الدارسة الفيزيائية ــ للظواهر الصوتية عامة ــ على تحويل النشاط النطقي الفسيولوجي إلى موجات وذبذبات صوتية تظهر على أجهزة التحليل الصوتي .

وقد أثبتت الأبحاث المعملية التي أجريت على ظاهرة التفخيم أن ترددات Frequency أصوات التفخيم في الثانية الواحدة تكون أقل من ترددات الأصوات المرققة في الثانية، فإذا أخذنا اللام بنوعيها مثلاً لذلك، فإننا سنجد أن مقدار دورات التذبذب في الثانية الواحدة قد بلغ في اللام المفخمة في أعلى معالمها ٢٤٠٠ دورة في الثانية، بينما بلغ في اللام المرققة في أعلى معالمها من ٢٤٠٠ ــ ٢٥٠٠ دورة في الثانية[١].

المبحث العاشر
هل التفخيم في الراء واللام استعلاء ؟

أَلْحقَ علماء التجويد اللام المغلظة، والراء المفخمة بحروف الاستعلاء؛ يقول محمد مكي نصر :" .. ثم اعلم أن حروف الاستعلاء ــ ويقال لها حروف التفخيم ــ سبعة، ويتبعها حرفان: الراء في حالة تفخيمها، ولام التغليظ؛ قال المرعشى نقلاً عن التمهيد: لأن اللام والراء المفخمتين يشبهان الحروف المستعلية" [٢].

وفي كلام مكي نصر السابق مراعاة ضمنية لشكل ووضع اللسان حال النطق بصوت اللام والراء المفخمتين؛ حيث شبههما بالحروف المستعلية، وقد علل القراء فسيولوجياً للحروف المستعلية.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وبعد:

فمن بحثنا لظاهرة تفخيم اللام والراء نستنتج الآتي:

١) التفخيم والتغليظ مترادفان، إلا أن المستعمل في الراء ضد الترقيق ــ التفخيم،وفي اللام التغليظ .

٢) التفخيم ضد الترقيق، ولكن بعض القراء قد أطلقوا على الترقيق إمالة على سبيل المجاز.

٣) اشتمل التصور الصوتي للتفخيم والترقيق عند القراء على الناحتين: الفسيولوجية والسمعية.

٤) لا توصف الراء أصالة بتفخيم ولا ترقيق، ولكن السياق والتركيب هما اللذان يحددان ذلك.

٥) تحقق جانبا ظاهرة المماثلة في الراء، بينما تحقق الجانب الثاني منها وهو (التأثر التقدمي) فقط في اللام .

٦) اللام كالراء لا توصف أصالة بتفخيم و لا ترقيق، ولكن السياق والتركيب هما اللذان يحددان ذلك .

٧) يرتبط التفخيم فسيولوجيا بشكل ووضع اللسان؛ إذ هما العاملان الرئيسان في التفريق بين الأصوات المفخمة وغير المفخمة .

٨) التفخيم فيزيائيا يتميز ببطء ذبذباته، بيمنا يتميز الترقيق بسرعة ذبذباته .

٩) يدخل اللام والراء المفخمان في إطار الأصوات المستعلية .

١٠) كما أن تفخيم اللام ملح أدائي من ملامح الأداء القرآني، فهو في الوقت نفسه لهجة من لهجات بعض القبائل العربية، كما ينسب لأهل الشام والمغرب.

وبعد:

فإني أشكر الله كثيرا على أن وفقني إلى إتمام هذه الدراسة، وأنه كان عوني ورائدي في كل خطوة خطوتها وكل منهج سلكته .... كلما استعنته أعانني، وكلما استهديته هداني، حيث انتهيت – وله الفضل والمنة – على خير ما كنت أرجو وأريد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

١. **إبراز المعانى من حرز الأماني في القراءات السبع** ،لأبي شامة الدمشقي. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٢. **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**، المسمى: منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات، للشيخ أحمد بن محمد البنا، تحقيق: د / شعبان محمد إسماعيل. طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ــ أولى .

٣. **الأصوات اللغوية** ، د / إبراهيم أنيس ــ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٩٥ م.

٤. **التحديد في الإتقان والتجويد** تحقيق: د/ غانم قدوري الحمد ط. دار عمار- الأردن.

٥. **ترتيل القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة** ، د / عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، نشر المؤلف ــ الطبعة الأولى .

٦. **دراسة الصوت اللغوي** د / أحمد مختار عمر، طبعة عالم الكتب ــ الثانية سنة ١٩٨١م .

٧. **التشكيل الصوتي في اللغة العربية : فونولوجيا العربية** ، د / سلمان حسن العاني، ترجمة د/ ياسر الملاح ، طبعة النادي الأدبي الثقافي ــ أولى ــ جدة ــ المملكة العربية السعودية .

٨. **التطور النحوي للغة العربية** للمستشرق الألماني برجشتراسر، تعليق د/ رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ثالثة سنة ١٩٩٧م .

٩. **التيسير في القراءات السبع**، لأبي عمرو الداني، تحقيق: أوتو يرتزل . طبعة دار الكتب العلمية.

١٠. **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد** ، د / غانم قدوري الحمد، طبعة مطبعة الخلود ــ أولى ــ بغداد سنة ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

١١. **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة** ، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ــ طبعة مؤسسة قرطبة ــ القاهرة ــ أولى سنة ٢٠٠٥ م .

١٢. **السبعة** ، لابن مجاهد ، تحقيق : د / شوقي ضيف . طبعة / دار المعارف .

١٣. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، لمكي بن أبي طالب القيسي، طبعة مؤسسة الرسالة ــ ثالثة ــ بيروت سنة ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤م.

١٤. **علم الأصوات** ، د / كمال بشر ، طبعة دار غريب بالقاهرة سنة ٢٠٠٠ م .

١٥. **علم التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث** ، د / أبو السعود الفخراني ــ رسالة دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

١٦. **علم الصوتيات** ، د / عبد الله ربيع محمود ، د / عبد العزيز علام . طبعة المكتبة التوفيقية ـــ أولى.

١٧. **عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة** ، د / عبد العزيز أحمد علام ـــ الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـــ = ١٩٩٩ م .

١٨. **لسان العرب**، لجمال الدين بن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخـــرين. طبعـــة دار المعارف.

١٩. **مقدمة في علم أصوات العربية** ، د / عبد الفتاح البركاوي، نشر المؤلف ـــ الطبعة الثالثـــة سنة ١٤٢٤ هـــ = ٢٠٠٤ م .

٢٠. **الموضح في التجويد** ، لعبد الوهاب القرطبى ، تحقيق : د / غانم قدورى الحمد، طبعـــة دار عمار ـــ أولى ـــ الأردن ـــ سنة ١٤٢١ هـــ = ٢٠٠٠ م .

٢١. **النشر في القراءات العشر**، للإمام محمد بن محمد الجزري . طبعة / دار الفكر. **نهاية القول المفيد في علم التجويد** ، لمحمد مكي نصر ـــ طبعة / الحلبي، وطبعة مكتبة الآداب.

الهوامش والإحالات:

١. **الأصوات اللغوية ص ٦٦ .**
٢. **النشر في القراءات العشر لمحمد بن الجزري ١/ ٩٨ – ٢٠١ طبعة دار الفكر، وقارن بنهاية القول المفيد في علم التجويد لمحمد مكي نصر ص ٣٢ طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة / أولى سنة ١٤٢٢هـــ = ٢٠٠١م .**
٣. **انظر: د/ تمام حسان العربية معناها ومبناها ص ٧٩ ، والدكتور عبد الله ربيع علم الصوتيات ص ٢٢٧.**
٤. **انظر: د/ كمال بشر علم الأصوات ص ١٨٤ ط.دار غريب بالقاهرة سنة ٢٠٠٠م وله أيضًا علم اللغة العام ... الأصوات ص ٨٩ ط.دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .**
٥. **انظر د/ كمال بشر علم الأصوات ص ٣٤٥ ود/ عبد الفتاح البركاوي مقدمة في علم أصوات العربية ص ١٠٨ نشر المؤلف.**
٦. **انظر: النشر في القراءات العشر للجزري ١/ ٢٠٤ .**
٧. **انظر: د/ كمال بشر علم الأصوات ص ٣٤٧.**
٨. **انظر: النشر ١/ ٢٠٤.**
٩. **لسان العرب مادة (ف. خ . م).**

١٠. السابق ، مادة (ر. ق . ق).
١١. السابق مادة (غ .ل. ظ) .
١٢. النشر ٢/٩٠.
١٣. نهاية القول المفيد ص ٩٩.
١٤. النشر ٢/٩٠ ، ١١١ .
١٥. السابق ٢/٩٠.
١٦. نهاية القول المفيد ص ٩٩ .

(١) أ.د/ البركاوي، مقدمة في علم أصوات العربية ص ١١٢ .
(٢) أ.د/ البركاوي ،ترتيل القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص ٧٦.
(٣) أ.د البركاوي ،السابق ٧٦.
(٤) النشر ١/٢٠٣وانظر أيضا: نهاية القول المفيد ص٥٥.
١٧. د .عبد العزيز علام ، عن علم التجويد القرآني ص ٨٩.
١٨. مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، ت : مكتبة قرطبة ص٦٢،٦٣ط.أولى.
١٩. أ.د البركاوي ، مقدمة في علم أصوات العربية ص ١١١.
٢٠. نهاية القول المفيد ص ٥٥.
٢١. د. كمال بشر ،علم الأصوات ص ٣٩٩ .
٢٢. الدكتور / أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي ص ٢٧٩ .
٢٣. الدكتور/ إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ص ٦٥، ٦٧ .
٢٤. الدكتور / كمال بشر ، علم الأصوات ص ٣٩٤.
٢٥. الدكتور/ عبد العزيز علام ،السابق ص ٩١.
٢٦. د. غانم الحمد ــ الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ٤٧٩ .
٢٧. د/ كمال بشر ، علم الأصوات ص ٣٩٦ وقد حصر هذه الأصوات في أصوات الإطباق فقط ، وأخرج منها القاف والغين والخاء وعدها من القسم الثاني الذي يكتسب =تفخيمه من السياق ــ كما سيأتي ــ والصواب عدها من القسم الأول ؛ لوجود الاستعلاء فيها الذي هو سبب التفخيم.
٢٨. أ. د عبد الفتاح البركاوي ، ترتيل القرآن الكريم ص ٧٦ وقد أضاف أستاذنا إلى هذين الصوتين صوت ألف المد وهو كما هو معروف ــ من الحركات ، وسيأتي الحديث عن تفخيم الحركات.

٢٩. انظر في هذا الحصر : السبعة والتيسير ،أبراز المعاني ، وإتحاف فضلاء البشر ، النشر.
٣٠. الأصوات اللغوية ص ٦٦ .
٣١. السابق الصفحة نفسها.
٣٢. الدكتور /إبراهيم أنيس ، السابق ص ٦٧ .
٣٣. الكشف لمكي بن أبي طالب ٢٠٩/١ والنشر ١٠٨./٢.
٣٤. النشر ١٠٨/٢.
٣٥. د/ كمال بشر ، علم الأصوات ص ٤٠٥.
٣٦. د/ كمال بشر، السابق ص ٤٠٥.
٣٧. د/ أنيس ، السابق ص ٦٧.
٣٨. النشر ١٠٩/٢.
٣٩. الدكتور /أبو السعود الفخراني ، التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث ص ٢١٩.
٤٠. د/ أنيس ، الأصوات اللغوية ص ٦٦ و د/ كمال بشر ،علم الأصوات ص ٤١٤.
٤١. النشر ٩٠/٢.
٤٢. التحديد في الإتقان والتجويد ص١٦١ ت:د| غانم الحمد ط.دار عمار– الأردن.
٤٣. النشر ٩٠/٢.
٤٤. السابق الصفحة نفسها.
٤٥. برجشتراسر ، التطور النحوي ص ٢٨ ود/ إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ص١٧٩ ود/عبد الله ربيع ،علم الصوتيات ص ٢٧٢، ٢ ٧٥.
٤٦. انظر: المراجع السابقة .
٤٧. برجشتراسر ، التطور النحوي ص ٢٨ ود/ إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ص١٧٩ ود/عبد الله ربيع ،علم الصوتيات ص ٢٧٢، ٢ ٧٥.

٤٨. د/ كمال بشر ،علم الأصوات ص ٤١٧.
٤٩. انظر : السبعة ،التيسير ،وإبراز المعاني ، والإتحاف ، والنشر .
٥٠. هذه السور هي :(سورة طه ــ سورة النجم ــ سورة الشمس ــ سورة الأعلى ــ سورة الليل ــ سورة الضحى ــ سورة العلق ــ سورة النازعات ــ سورة عبس ــ سورة القيامة ــ سورة المعارج) .
٥١. قال الإمام الشاطبي:

(١) وممـــا أمـــالاه أواخـــر آي مـــا بطـــه وآي النجـــم كي تتعدلا
٥٢. وفي الشمس والأعلى و في الليل والضحى وفي اقرأ وفي النازعات تميلا
٥٣. ومـــن تحـــتها ثم القـــيامة ثـــم في الـــ ـــمعارج يا منها أفلحت منهلا

٥٤. النشر ١١١/٢وينظر: الكشف ٢١٩/١.
٥٥. د/ أنيس ،الأصوات اللغوية ص ٦٥ و د/ كمال بشر ،علم الأصوات ص ٤٠٨ .
(١) الكشف ٢١٩/١، ٢٢٠.
(٢) الموضح ص ١١٩ ت:د.غانم الحمد ط دار عمار أولى١٤٢١هـ=٢٠٠٠م الأردن.
(٣) الكشف ٢١٩/١.

٥٦. الموضح ص ١٢٠.
٥٧. د/غانم الحمد ،السابق ص ٤٨٧ .
٥٨. اختلاف القراء في اللام والنون نقلا عن د/ غانم الحمد ص ٤٨٨.
٥٩. الدكتور سلمان حسن العاني ، التشكيل الصوتي في اللغة العربية ، فونولوجيا العربية ، ترجمة د/ ياسر الملاح ط النادي الأدبي الثقافي ــ جدة ــ السعودية أولي ص ٧٨.
٦٠. عبدالوهاب القرطبي ،الموضح ص١٢٠.
٦١. د/ أنيس ، الأصوات اللغوية ص ٦٥ .
٦٢. الكشف ١١٩/١.
٦٣. انظر :**Heffner General Phontics .p. 126-134-152-153** .
٦٤. العاني ،التشكيل الصوتي ص ٧٧ ،٧٨ .
٦٥. نهاية القول المفيد ص ١٠٨ .